مجلة المحترف لعلوم الرياضة و العلوم الانسانية و الاجتماعية
المجلد (11) العدد (02) السنة (2024)
الصفحة 457-441

أسس التقدم والتنوير عند العلامة البشير الإبراهيمي

معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 16/02/2024
تاريخ القبول:30/06/2024

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

The foundations of progress and enlightenment at al-Bashir Brahimi

د. حاج، بن دحمان[1*]، د. طاهرحفصة[2]

[1]جامعة غليزان (الجزائر)، bendahmane.hadj@gmail.com

[2]جامعة تيارت (الجزائر)، tahar.hafsa@univ-tiaret.dz

الملخص:

إن الفكر الجزائري على غرار الفكر العربي الحديث والمعاصر، تطرق إلى المواضيع التي شغلت بال المفكرين العرب، ومنذ حملة نابليون على مصر (1798م-1801م) طفت إلى السطح قضية النهضة والتقدم، وقد عالج أقطاب تيارات الفكر العربي الحديث والمعاصر هذه القضية، كل وفق خلفيته الإيديولوجية. وفي هذا الإطار يندرج هذا المقال ليسلط الضوء على موقف العلامة البشير الإبراهيمي، أحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من إشكالية أسس النهضة والتقدم.

الكلمات المفتاحية:التقدم، التنوير، الإصلاح، النهضة، الحداثة

ABSTRACT

Algerian thought, like modern and contemporary Arab Thought, touched on the topics that preoccupied Arab thinkers, and since Napoleon's campaign against Egypt(1798-1801) came to the surface the issue of Renaissance and progress, and the poles of the currents of modern and contemporary Arab Thought addressed this issue, each according to his ideological background. This article highlights the position of al-Bashir Ebrahimi, one of the founders of the Association of Algerian Muslim scholars, on the problematic foundations of Renaissance and progress.

Keywords: Progress, Enlightenment, Reform, Renaissance, Modernity

* المؤلف المرسل

مقدمة:

إنَّ السمة التي وسم بها الفكر العربي الحديث والمعاصر، ومنذ الحملة الفرنسية على مصر إلى الآن، هي انشغاله بقضية التقدم والنهضة، فجل مفكري هذه الحقبة أفردوا لهذه الإشكالية كتبا كان لها تأثيرا كبيرا على الساحة الفكرية، منها مثلا كتاب "ما هي النهضة" لسلامة موسى أو "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم" لأمير البيان شكيب أرسلان وغيرها من المؤلفات التي تعكس مدى سيطرة هاجس التقدم والتنوير على أذهان مفكرينا.

ومن هنا نطرح التساؤل: ما مفهوم التنوير والتقدم؟ وهل وجد هاجس التنوير والتقدم في كتابات الإمام محمد البشير الإبراهيمي؟

1.**مفهوم التنوير والتقدم.**

1.1 مفهوم التنوير:

التنوير كما جاء في المعجم الفلسفي هو "اتجاه فكري ساد أوروبا في القرن الثامن عشر بتأثير طبقة المثقفين المعروفين باسم المتفلسفين، من أمثال فولتير، ديدرو، كوندورسيه، وهولباخ، وكان التنوير نتاج عصر العقل، وأفكاره تقوم على ثلاث وحدات تتعلق بالعقل والطبيعة والتقدم" (الحفني، 2000، صفحة 224).

إن كلمة "التنوير" تستخدم بالمعنى المتعارف عليه والذي يشير إلى الحركة الفكرية التي ازدهرت في أوروبا في أوروبا في القرن الثامن عشر، "رافعة لواء التسامح مع الآراء المخالفة للرأي السائد، بخاصة فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية، والتحرر من الأغلال المقيدة للفكر والتعبير، وقد ارتبطت هذه الحركة بإعلاء شأن العقل، واعتباره الميزان الوحيد للحكم على الأشياء" (جلال الدين أحمد أمين، 2004، صفحات 69-70)، وقد استخدم التعبير نفسه في وصف ما حدث في بعض البلدان العربية، بعد نحو قرن من حدوثه في أوروبا، من قيام بعض المفكرين العرب بالمناداة بشكل أو بآخر بما نادى به أنصار التنوير في أوروبا، ابتداء من رفاعة الطهطاوي في منتصف القرن التاسع عشر، وحتى نصر حامد أبو زيد في الثمانينات من القرن الماضي، مروراً بقاسم أمين ولطفي السيد وفرح أنطوان، وطه حسين، وسلامة موسى، كما أسلفنا الذكر.

2.1 مفهوم التقدم:

أمَّا مفهوم التقدم فـ "هو السير للأمام، ونقيضه التخلُّف، والتأخُّر، والتراجع، تقول تقدّم الجيش، وتقدّم التعليم، وتقدّمت الأمة، وكل تقدّم فهو لغرض وغاية، ومنه التقدم المتصل، والمتواصل، وقد يتناهى أو لا يتناهى، والتقدم المتناهي الذي يحقق الغاية منه ويتوقف، وغير المتناهي الذي يكون ضروريا" ومن حد إلى حد، كما في تسلسل الأسباب أو تسلسل الأعداد، ويقال لغير المتناهي تقدمُ مطلق، والغائية في الحياة تقدُّمها مطلق.، والتقدم في فلسفة الحتمية التاريخية من أنواع المطلق" (الحفني، 2000، صفحة 224).

إن مفهوم التقدم لدى المفكرين العرب المحدثين وهو نقل عربي لكلمة "Progrès" الفرنسية وقريناتها في الإنجليزية والألمانية ليس هو المصطلح الأكثر استخداماً عندهم، إذ ثمة مصطلحات أخرى مكافأة لها تماماً مثل مصطلح

"الترقي" الذي نجده أوسع انتشاراً حتى في فترة ما بين الحربين الكونيتين في القرن العشرين، ومصطلح "التمدن" الذي يشير في أغلب الأحيان إلى ما يعبر عنه اليوم مصطلح "الحضارة".

ومع أنَّ مصطلح "التقدم" حديث إلاَّ أنَّ بعض المفكرين العرب المحدثين أنفسهم، كالزهراوي مثلاً، قد استخدموا كلمات "التحسين" و"الفوز" و"الصلاح" و"الفلاح" وهي كلمات عربية أصيلة استخدمت بعض مشتقاتها في القرآن نفسه بالمعنى الذي تستخدم به كلمتا" الترقي" و"التقدم" المحدثتان، لكن من الحق أن يقال أنَّ مفهوم "التقدم" عند مفكري الإسلام المحدثين لم يؤخذ إلاَّ لماماً، بالمعنى الذي نجده لدى فلاسفة "التقدم" التنويريين في أوروبا (فهمي جدعان، 1979، صفحات 14-15).

لقد هيمنت أطروحة "التقدم" على بعض مفكري العالم العربي والإسلامي المحدثين، وسيقع تصوّر هذا المفهوم كقطيعة مع الذات، وتماهٍ مع الآخر، وبالاعتماد الكلي للقيم الثقافية للحضارة الغربية وأنماطها المؤسسية، فكانت مقولة طه حسين المشهورة: "علينا أن نصبح أوروبيين في كل شيء، قابلين ما في ذلك من حسنات وسيئات"، ومن ثم يقول غليون: "أصبح التقدم هو هدف المجتمع الإنساني عامة، والمجتمع العربي، فأصبحت التقدمية دين النخبة الحديثة المتعلمة، لا يخلو كتاب من ذكرها أو الإشارة إليها، وأصبح التقدم مطلباً عاماً، تقوم من أجله الثورات وتبرر به الحكومات إجراءاتها السياسية والاقتصادية، وصار مصدر مشروعية الكلام والعمل معاً، لا ينتظم عقل بدونه، ولا ممارسة خارج دائرته وهدف تحقيقه" (السيد ولد أباه، 2004، صفحة 95).

ولم يشذ الفكر الجزائري المعاصر عن القاعدة، بل أدلى بدلوه في هذه القضية المصيرية، ألاَّ وهي قضية التنوير والتقدم، وعنها المفكر "زكي نجيب محمود" بأنَّها أم القضايا الفكرية في حياتنا الراهنة، بدليل نجد المفكر "مالك بن نبي" يؤلف كتاب بعنوان "شروط النهضة" حدد فيه العوامل الرئيسية لنهوض الأمم وزوالها وأن كانت دراسته مركزة على كيفية نهضة الحضارة العربية الإسلامية.

وفي هذا الإطار نجد أيضا العلامة محمد البشير الإبراهيمي في مقالاته العديد يحدد الأسس والمعالم الرئيسية لتنوير الأمم وتقدمها، بالإضافة إلى انشغالاته الفكرية العديدة كالتعريف للثورة الجزائرية في المحافل الخارجية، واهتماماته التربوية والإصلاحية كعضو فعّال في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكرئيس لها بعد وفاة العلامة عبد الحميد بن باديس، وبهذا يمكن القول أنَّ قضية التنوير والتقدم لم تغب عن باله، ولهذا نجدها حاضرة في كثير من المقالات التي ألقيت في العديد من التظاهرات والعلميَّة وحتى السياسية، فما هي أسس التنوير والتقدم في كتاباته؟، إنَّ هذه الأسس عديدة يمكن أن نحددها في أسس عديدة.

2. التسامح مع الآراء المخالفة في فكر العلامة محمد البشير الإبراهيمي:

إنَّ قيم التسامح في فكر البشير الإبراهيمي طافحة في كتاباته، بحيث لا يكاد يخلو أيّ مقال إلاَّ ونجده يدعو إلى ترسيخ التسامح حتى مع المستعمر الفرنسي نفسه.

التسامح في الحرب: ففي المقال بعنوان "يوم الجزائر"، وبعد أن سرد جرائم الجيش الفرنسي في الجزائر يصل إلى نقطة مهمة وهي قيمة التسامح في الحرب في الإسلام، ففي الإسلام آداب القتال التي تجاهلتها الحضارة الغربية في غزوها لشعوب العالم الثالث، وهنا نجده يطرح سؤال في غاية الأهمية وهو" أين آداب القتال التي شرعها الإسلام من آداب القتال في هذا العصر المحتضر؟" (البشير الإبراهيمي، 2007، صفحة 151)، فهذا العصر وهو عصر الحداثة والنهضة والعلم ومع ذلك يتنكر لقيم الإنسانية، التي عجت بها مؤلفات هذا العصر، عندما يتعامل مع القوى المستضعفة، فهذه فرنسا التي تقود العالم المتحضر لا تتوانى في التنكر لهذه القيم وتتعامل بكلل وحشية مع الشعوب التي احتلتها. فالإسلام أرسى آداب القتال فها هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق في وصيته المشهورة لجيش المسلمين المتوجه للغزو ومنها "لا تقتلوا إلاَّ من قاتلكم ولا تقتلوا طفلا ولا امرأة ولا شيخا ضعيفا".

أمَّا في مقال آخر بعنوان "شرعة الحرب في الإسلام" فهو عندما يحلل ظاهرة الحرب في الإسلام ويقارنها بالحروب التي شنها العالم المتمدن يجد الفرق شاسعا والبون واسعا وحول هذه المقارنة نجده يكتب "وما نسبة هذه الأحكام والآداب التي جاء بها الإسلام من قبل أربعة عشر قرنا إلى ما يجري في حروب هذا العصر الذي يدعونه عصر النور والعلم والإنسانية والمدنية "كنسبه نور النهار إلى ظلمة الليل" (البشير الإبراهيمي، 2007، صفحة 93).

فالحرب في الإسلام هي مفسدة لا ترتكب إلاَّ لدفع مفسدة أعظم منها، وأولى هذه المفاسد هي مفسدة الوثنية ومفسدة الوقوف بالقوة في وجه نشر رسالة الإسلام، فلو آمنت قريش منذ البداية بالدعوة ولم تقف حجرة عثرة أمام طريق الإسلام لما كانت غزوة بدر وأحد وغيرها من الغزوات التي شهدها التاريخ الإسلامي.

والقرآن الكريم لم يشرع الحرب بأيّ صيغة من صيغ الأحكام كصيغة الشرع أو الوجوب وغيرها، وإنَّما "جاءت الآية الأولى فيه كصيغة الأذن المشعرة بأنَّه شيء معتاد في الاجتماع البشري ولكنه ليس خيرا محضاً ولا صلاحا سرمداً، وإنَّما هو شر أحسن حالاته أن يدفع شرا آخر"(البشير الإبراهيمي، 2007، صفحة 92).

والحرب في الإسلام كما يرى العلامة البشير الإبراهيمي محكومة بضوابط وأحكام وآداب، منها أنَّ الإسلام حرم التعذيب والتشويه والمثلة في الحرب وأوصى بالأسرى خيرا حتى جعل إطعامهم والإحسان إليهم قربة إلى الله، أمر بألا يقتل إلى المقاتل أو المحرض على القتال، أو المظاهر على المسلمين، فنهى وتوعد على قتل النساء والصبيان والشيخ الهرم والقعدة والرهبان المنقطعين في الصوامع، فنهى عن عقر الحيوان المنتفع به، فنهى عن إتلاف الزرع وإحراق الأشجار وقطعها، وبعد أن عرض البشير الإبراهيمي هذه الأحكام والآداب يصل إلى فكرة مهمة مفادها أنَّ الحرب في الإسلام قدمت أروع صورة عن الإسلام فهو يقول: "أنَّ أحكام الحرب في الإسلام مثال غريب في تاريخ العالم، ماضيه وحاضره يصور الحرب عذابا تحفه الرحمة من جميع جهاته ويتخلله الإحسان في جميع أجزائه، ولو وازناها بالقوانين المتبعة في الحروب إلى يومنا هذا، وقارنا أسبابها في الإسلام ببواعثها اليوم لوجدنا الفروق أجلى من الشمس" (البشير الإبراهيمي، 2007، صفحة 92).

أمَّا في المقال المعنون بـ"فرنسا وثورة الجزائر" فيرى فيه أنَّ الجزائريين دفعوا إلى هذه الثورة دفعا وذلك بسبب ما ارتكبه الاستعمار الفرنسي من مجازر في حق الجزائريين فهو يقول "ما ذنبنا إذا بدأنا الاستعمار الفرنسي بالشر وسوء

المعاملة وحرمنا من جميع مقوماتنا واعتدى على ديننا فتعمده بالمسخ وعلى شعائرنا فتعمدها بالتعطيل، وعلى مساجدنا فتعمدها بالهدم" (البشير الإبراهيمي، 2007، صفحة 183)، وبعد أن عرض البشير الإبراهيمي جرائم الاستعمار الفرنسي يصل إلى التساؤل "فهل من عاذر؟ وهل من منصف؟ وهل من عاقل؟ وهل من معين؟، فثورة الجزائر لها مبرراتها الشرعية في نظر الإبراهيمي، فهي ثورة ضد الظلم والجور والاستعباد وفي هذا الإطار يورد البيت الشعري:

"وإن لم تكن إلاَّ الأسنة مركب *** فلا يسع المضطر إلا ركوبها" (البشير الإبراهيمي، 2007، صفحة 184)، فالشعب الجزائري أعلن الحرب على المستعمر لأنَّه ضاق ذرعا بجرائمه الوحشية التي يندى لها الجبين ويشيب لهولها الوالدان.

3. الدعوة إلى الوحدة العربية:

لقد دافع العلامة الإبراهيمي في مداخلاته وكتاباته عن خيار الوحدة العربية بحماسة شديدة، لأنَّ الوحدة في نظره هي المخرج والمنفذ من براثن الاستعمار، وبالتالي من براثن التخلف إلى أفق الرقي والتطور، ففي الخطاب الذي ألقاه أمام الوفود العربية والإسلامية في الأمم المتحدة بتاريخ: 18 فيفري 1952م وقد صدر هذا الخطاب في مجلة البصائر في عددها 183، فهو يشبه الدول العربية المتفرقة والممزقة كحبات انقطع سلكها فانتثرت فأصبحت كل حبة منها في كف لاقط، فهذه الأقطار منذ أن مزقها الاستعمار وشتت شملها أصبحت تعيش في غربة موحشة، ومن مقومات الوحدة في نظرة الشيخ الإبراهيمي وحدة في اللغة والدين والتاريخ والجغرافيا، فمتى اجتمعت هذه المقومات تحققت الوحدة، ولقد حلل الشيخ الإبراهيمي ببراعة كبيرة الحيلة التي وظفها المستعمر من أجل تقسيم الوطن العربي إلى دويلات صغيرة سائرة في فلك الغرب، فأول ما فعله المستعمر في نظره هو أنَّه استهدف مقوماتنا حتى تضعضعت وأول هذه المقومات هو الدين الإسلامي حيث، وظف المستعمر علماء من أجل هذه الغاية، حيث شجعوا البدع المستحدثة في الدين والضلالات التي كانت منتشرة فوسعوها، وبعد الدين انتقلوا إلى عنصر الشباب "فرموه بهذه التهاويل من الحضارة الغربية، وبهذه التعاليم التي تأتي ببنيانه الفكري والعقلي من القواعد وتحرف المسلم عن قبلته وتحول الشرقي إلى الغرب "(البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 387)، وهنا أصيب الشباب العربي المسلم بالمسخ الحضاري الذي سهل عملية التفرقة والتقسيم، ولقد سخّر المستعمر كل وسائله العلمية والفكرية والمالية من أجل تجزئة هذا الوطن العربي إلى دويلات.

كذلك لعب المستعمر على وتر مُقوّم التاريخ، فقد سخر منا المستعمر ووصمنا بأنَّنا نعيش في الماضي ونمجده، "نتكل على الموتى يقولون هذا عنا في معرض الاستهزاء بنا، أو في معرض النصح لنا، وأنا لا أدري متى كان إبليس مذكرا" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 384)، فالمستعمر في نظر الإبراهيمي يهدف من وراء هذه التهمة أو الاستهزاء هو أن تنبذ ماضينا ونتنكر كلية لتاريخنا ولمن صنعوه، لكن المفارقة الكبيرة في نظرة العلامة الإبراهيمي هي كيف ينكر علينا الاستعمار الاهتمام بماضينا في الوقت الذي يمجد هو مآثر أسلافه فهو يتساءل: "هل نسوا ماضيهم؟ إنَّهم يبنون حاضرهم على ماضيهم، إنَّهم يعتزون بآبائهم وأجدادهم، إنَّهم يخلدون عظمائهم في الفكر والأدب والفلسفة

والحرب والفن، إنَّهم لا ينسون الجندي ذا الأثر فضلا عن القائد الفاتح وهذه تماثيلهم تشهد وهذه متاحفهم تردد الشهادة" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحات 384)،.

ولكي لا تنطلي علينا الحيلة ونتنكر لماضينا يدعونا العلامة الإبراهيمي إلى وجوب تثقيف أبنائنا تثقيفا عربيا شرقيا موحدا، فهو هنا يرتكز على الوحدة الثقافية، لأنَّ الانشقاق والتشطير الحاصل بين الأقطار العربية في نظر العلامة الإبراهيمي يعود إلى اختلاف الثقافات، وإن كان يبدو من الظاهر أنها خلافات سياسية محضة، فما علينا في ظل هذه الأساليب الجهنمية والشيطانية التي بات الاستعمار يمارسها من أجل تقسيم العالم العربي، إلاَّ الالتزام بأركان كعبة الوحدة والذود بها، لكن كيف تتوحد والتقسيم أصبح حقيقة واقعية فللخروج من المأزق يقترح العلامة الإبراهيمي الوحدة في مجالات التعليم والتجارة والذود عن حمى الأقطار العربية فهو يقول: "توحيد التعليم ومناهجه والتجارة وأوضاعها، ولطمس هذه الحدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد وليرتفق بعضنا بعضا، ولنكن يدا واحدة على الأجنبي" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 388)، وفي هذا السياق يؤكد بشير فايد أنَّ هناك ثلاثة دوافع إلى الوحدة العربية عند العلامة البشير الإبراهيمي وهي:

1.3 الدافع الأول:

هو دافع حتمية التكتل، فالعصر المعاش هو عصر التكتلات السياسية والاقتصادية، فإذا كان الأوربيون يختلفون في اللُّغة والتاريخ والعرق وغيرها من المعوقات تراهم قد تكتلوا وشكلوا وحدة، فما بالك بالعرب وهم إخوة يشتركون فيما بينهم في الدم واللُّغة والخصائص العرقية لا يتكتلون ولا يتحدون؟.

ولهذا دعا عرب المغرب العربي إلى الوحدة والتمسك بخيار التكتل لأنَّهم يمثلون نصف سكان العرب تقريبا وإذا فشلوا في تشكيل هذه الوحدة فإنهم يصبحون لقمة سائغة للاستعمار وبالتالي سيخسر العرب بذلك نصف عددهم

2.3 الدافع الثاني:

حتمية الوحدة لطرد الاستعمار الغربي من بلادهم، لا مفر للعرب من الوحدة في نظر الشيخ الإبراهيمي لدحر الاستعمار الغربي واستعادة حريتهم التي مناهم الاستعمار طويل بمنحها لهم وكان ذلك في الحربيين العالميتين الأولى والثانية، حيث وعدهم بعد كل حرب باستقلالهم إن هم شاركوا في صفه ولكن كان في كل مرة يخلف وعده ويتنكر لالتزاماته وتعهداته والأدهى من ذلك أنه بعد الحرب العالمية الثانية انتزع من العرب فلسطين وأهداها لليهود وأنشأ لهم بالتالي دولة إسرائيل التي تحولت كشوكة في حلق الجسم العربي إن تركوها أهلكتهم وإن حاولوا انتزاعها آلمتهم.

ونجد الشيخ الإبراهيمي ينتقد ويسخر من الفكرة القائلة بأنَّ الاستعمار قوة لا تقهر، فإذا كان الاستعمار قوة لا تقهر، فإنَّ العرب إنَّما زادوه قوة بتخاذلهم وتفرقهم وتطاحن هيئاتهم وإضاعة أوقاتهم في الجهل الفارغ والانسياق مع الأهواء المضللة التي فوتت عليهم فرصة استغلال الكفاءات الذاتية التي في حوزتهم

3.3 الدافع الثالث:

دعا الشيخ الإبراهيمي العرب إلى الاستفادة من محنة ضياع فلسطين والتفطن إلى خطط الاستعمار والمتمثلة في غرس الكيان الصهيوني في جسم الوطن العربي من أجل فصل جزئه الآسيوي عن الإفريقي، وبالتالي سد الطريق عن أية وحدة محتملة، قلت دعا الشيخ الإبراهيمي إلى الاستفادة من محنة ضياع فلسطين وتحويلها إلى منحة، فلا شيء يجمع القلوب كما يرى الشيخ مثل المصائب التي من شأنها أن توقظ المشاعر والأحاسيس وهنا نجده يتساءل "إن أدت هذه النكبة إلى جمع مشاعر العرب؟ أو أعادت الإدراك إلى عقولهم؟ وهل أزالت ما كان من أنفسهم من أنانية وأثرة؟ أو ما كان يسود بينهم من تنافس وصراع لا يخدم إلا عدوهم؟ (بشير فايد، 2013، صفحة 13).

بعد عرضنا لدوافع الوحدة في نظر الشيخ الإبراهيمي، علينا الآن أن نوضح الكيفية التي بها تتم الوحدة العربية، فالشيخ لم يكتف بحثّ العرب على الوحدة والتكتل بل واستعرض الفوائد الجمة التي ستترتب عليها، على المستويات والصعد كافة، بل اجتهد في إعطاء تصوراته وأفكاره بشأن الخطوات التي يتوجب عليهم القيام بها، لتحقيق حلم الوحدة العربية الشاملة وقد حصرها في خمس خطوات هي:

4. خطوات تحقيق حلم الوحدة العربية.

1.4 إزالة أسباب التنافر بين الشعوب العربية:

لن تكون الوحدة واقع معاش ما لم يتم، في نظر الشيخ الإبراهيمي، محو وإزالة أسباب التنافر وما أكثرها في العالم العربي في جميع ميادين الحياة وأول خطوة ونظره لإزالة هذا التنافر هو تكوين رأي عربي عام يتولى التوجيه والإرشاد والتنشئة، فالرأي العام من شأنه أن يزيد سطوة الزعامات الفردية التي تمثل مؤشرا لتفكك وأساس للتخاذل فالرأي العام ينضج، كما يوضح الشيخ في مناخ الاستقرار والثقافة الهادئة التي تأخذ على عاتقها مهمة التوحيد، ومقاومة التيارات الأجنبية الهدامة كالشيوعية والمذاهب الفكرية الغربية التي تربك الأفكار.

2.4 التقارب والتواصل بين البلدان العربية:

فالتقارب في نظرة الشيخ الإبراهيمي "هو بريد الاتحاد والتزاور دليله والتحاور بشيره والتشاور مفتاح بابه" (بشير فايد، 2013، صفحة 13)، وقد استبشر الإبراهيمي خيرا من الزيارة التي قام بها الأمير عبد الله الجابر الصباح لمصر وشكر مصر على احتفائها به رسميا وشعبيا ولهذا اعتبر الإبراهيمي أن مصر أكثر البلدان العربية أهلية لقيادة العرب، فهي التي احتضنت العروبة، ونبت في أرضها لسانها وتفتقت فيها حضارتها وآدابها، ولكل ذلك فن الوفاء لها أن يعترف كل عربي بهذا الفضل والسبق، فيقر لها بالقيادة والزعامة، والبشير الإبراهيمي في الحقيقة يوافق كل من ساطع الحصر وأبو الحسن علي الندوي اللذين اقتراحا تزعم مصر للوحدة العربية، لما كانت تشهده من نهضة ثقافية وفكرية وأدبية وحركة سياسية.

3.4 التعريب الشامل لكل مناحي الحياة:

لقد سجل التاريخ للإبراهيمي كفاحا طويلا في خدمة اللُّغة العربية، فكان لا يفتأ في محاضراته وندواته ومقالته، يحض على التعمق في دراسة اللُّغة العربية وحمايتها والحفاظ عليها، لأن لُّغة المرء تاريخيه وذاته وكرامته وعزمه وآية وجوده، وضمان بقائه" (محمد الصالح الصديق، 2010، صفحة 105).

ينطلق الإبراهيمي في دعوته للوحدة العربية من قناعة راسخة أن أقوى جامع لصف العرب لغتهم، وبالتالي إن أهم خطوات تحقيق الوحدة العربية هي تعريب كل مناحي الحياة في المجتمع العربي بدءً بتعريب الألسنة والأفكار والعقول والأذهان، والتصورات وحتى اللباس ووسائل النقل وغيرها ولا يتم ذلك إلا عن طريق تعريب المدرسة، بدءً من الكتاب إلى الجامعة وتعريب التعليم من المعلم إلى الكتاب، لكن العلامة البشير الإبراهيمي يشترط أن يكون التعريب ذا محتوى عربي إسلامي كامل "مع ايكال هذه المهمة الحضارية لمعلمين مخلصين للعروبة والإسلام، يتميزون بالعلم والاطلاع الواسع على تاريخ العرب وتراثهم وأخلاقهم وشمائلهم التي اكتملت بمجرد الإسلام الذي هذبها وأصبغها بصبغة، وهذا يقودنا إلى القول إنه ممن يضعون التاريخ واللغة والدين الإسلامي كمقومات أساسية للوحدة العربية" (بشير فايد، 2013، صفحة 52).

وفي الرسالة التي وجهها العلامة الشيخ الإبراهيمي إلى مؤتمر التعريب الذي انعقد بالرباط عام 1961 يرى أن من أسباب التوفيق أن نبدأ بمعالجة التعريب، لأن التعريب في نظر الشيخ الإبراهيمي هو أكبر شعار للاستقلال، "وهيهات أن يتحرر شعب ولسانه مستعبد للغة الأجنبية، أو يتحرر شعب متنكر للسانه، فاستقلال العرب لا يتم إلا بتعريب ألسنتهم وأفكارهم وهممهم وذممهم إلى آخر ما للعرب من صفات وأخلاق" (البشير الإبراهيمي، 2007، صفحة 209).

والتعريب عند الإبراهيمي نوعان، جزئي وكلي، فالتعريب الجزئي هو تعريب الألسنة والأقلام وآثارها من خطابة وكتابة ويدخل فيه تعريب الدروس التعليمية، أمَّا التعريب الكلي، فهو يشمل هذا التعريب الجزئي ويضيف إليه التخلق بأخلاق العرب والتحلي بكل ما اشتهر عنهم من محامد وفضائل.

وبعد أن يفصل الإبراهيمي في هذه الرسالة في التعريب بنوعي الجزئي والكلي يصل إلى القول: "إذا تم التعريب بنوعيه الجزئي والكلي نكون قد حصلنا على نتيجة عجز عنها من قبلنا من الدعاة المصلحين، وأدينا حق الله وحق دينه، وحق العروبة على أكمل وجه، وقمنا بالأمانة والعهد كما أمرنا الله ومهدنا للقومية العربية الكاملة بإزاحة العقبات من سبيلها، وجمعنا ما فرقت السياسية والسياسيون منا" (البشير الإبراهيمي، 2007، صفحة 215).

استقلال الأمة العربية أدبيا وفكريا ولغويا:

يعول الشيخ الإبراهيمي كثيرا على فن الأدب لكي يقود الأمة العربية إلى الوحدة الفكرية، فالأدب يبقى في نظره "رباطا يجمع العرب مهما اختلفوا أو تفرقوا في ميادين أخرى لطارئ من طوارئ الهم، أو لون من ألوان الاختلاف في الهمم" (البشير الإبراهيمي، 2007، ص 153).

وإنَّ الأدب العربي في نظر الإمام الإبراهيمي مثل الرباط الذي عجزت السياسات الإقليمية المفرقة على حلّ عروقه، ويظل على مر الأزمنة جامعا للعروبة وموحدا لآلامها وآمالها، شريطة أن يبقى عربيا في أصوله وقواعده لا شرقيا ولا غربيا، يستمد شخصيته وأهدافه في الحاجات الواقعية للمجتمعات العربية وليس تلك المفتعلة أو المزيفة

4.4 نبذ الانقسام واستبداله بالوحدة الشاملة:

دعا الإبراهيمي إلى الكفر بهذا الانقسام الحاصل بين البلدان العربية، وإذا كان من الصعب جمع البلدان العربية تحت مظلة سياسة واحدة ونظام حكم موحد خاصة في ظل وجود ممتلكات، يصعب معها فطام الملوك عن لذة الملك، فيقترح كحل لهذا الانقسام توحيد التعليم ومناهجه والتجارة وأوضاعها فهو يقول: "ولنطمس هذه الحدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد، وليرتفق بعضنا لبعض، فيما يزيد فيه بعضنا على بعضنا ولنكن يد واحدة على الأجنبي" (البشير الإبراهيمي، د ت، ص 388). ويدعو في نفس الوقت إلى أخذ العبرة من إيطاليا في ضم أجزائها وألمانيا وفرنسا التي لم يهدأ لها بال في قضية الألزاس واللورين.

ويصرح كذلك الإبراهيمي أنَّ الشيء الذي يدخل الفرحة إلى قلبه ويثلج صدره هو الوحدة، وحول هذه الفكرة نجده يكتب: "والذي روحي بيده ما يسرني أن للعرب ثماني دول، ولا أنَّ للمسلمين عشرين دولة، ما داموا على هذه الحالة، وإنَّما يسرني ويثلج صدري أن يكون المسلمون كلهم شعبا واحدا، فإذا وجد هذا الشعب لم يبق لهؤلاء الأقوياء إلاَّ أن يقولوا أنَّ في الشرق قوما جبارين، وإنه لم يبق لنا بينهم موضع"، وفي هذا الخطاب الموجه إلى الوفود العربية والإسلامية في الأمم المتحدة يدعوهم إلى التكتل لأن روح العصر هي روح التكتل لا تفرقه

أمَّا في مقال بعنوان "تعارف المسلمين مدعاة لقوتهم وعزتهم" يدعوا الإبراهيمي المسلمين باسم أخوة الإسلام إلى التعرف والتوحد، فهو يرى أن الوقت قد آن للتعارف "وآن الأوان لأَّن تجتمع هذه الأجزاء المتنافرة في الجسم الإسلامي الكبير، وجب على كل مخلص لدينه أن يسعى في جمع هؤلاء الإخوة المتقاطعين في مصلحة غيرهم" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحات 97)، ووظيفة التعارف يجب أن تقوم بها المؤسسات كالجمعيات والأحزاب والجرائد والمجلات، وذلك يتبادل الزيارات والجرائد والكتب والنشريات، وأن تضع نصب عينها مهمة تعريف المسلم بأخيه المسلم

5. الاهتمام بالعلم:

لقد كرّس الإمام الإبراهيمي حياته كلها للعلم دراسة وتدريساً، فكان من المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت الغاية الأولى والوحيدة من تأسيسها هي إشاعة أنوار العلم والمعرفة على ربوع الجزائر التي أدخلها الاستعمار في عقود من الجهل المطبق، وذلك بما أقدم عليه من تهديم للمدارس والمعاهد ومطاردته للعلماء والفقهاء. لقد ساهم البشير الإبراهيمي في تأسيس المدارس الحرة مع رفيق دربه العلامة عبد الحميد بن باديس في شرق الجزائر وغربها وشمالها وجنوبها إضافة إلى تأسيس مجلة البصائر (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 105). وبعد وفاة العلامة بن باديس سنة 1940 تولى رئاسة الجمعية، أسس معهد ابن باديس، حيث ساهمت مجلة البصائر ومعهد ابن باديس في بعث نهضة علمية حقيقية.

ففي مقال بعنوان: "سنة من عمر البصائر" يعرف فيه جريدة البصائر "بأنَّها سجل للحركة العلمية والأدبية لهذا القطر وثبت حافل بأعمال جمعية العلماء وكنز من البيان العربي تشد عليه أيدي الضنانة وأعدادها تكون في كل سنة مجلدا نفيسا تزان به الخزائن" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 388). فجريدة البصائر هي تدوين وتتبع مستمر لمستجدات الحركة العلمية الفكرية التي تشهدها الساحة الثقافية في تلك الحقبة المجيدة من تاريخنا وهي هذه الجريدة "تعد واحدة من أشهر الصحف الإصلاحية في تاريخنا المعاصر" (مولود عومر، 2010، صفحة 85)، لأنَّ الإمام الإبراهيمي حرص أن تكون هذه الجريدة مساحة لحرية التفكير والإبداع، وعمل الإبراهيمي مع مساعديه على أن تكون البصائر "حينه من طراز ممتاز، تناضل في سبيل الإسلام والعروبة والقومية، تنصر القضايا العادلة في مختلف جهات العالم، وتنشر المبادئ القومية وتبث الأفكار الجريئة الحرة، فأضفت على الجزائر صورة وضاءة، بما كان فيها من تحرير بليغ ودراسات عميقة وشعر فحل، يُعدّ – ولا فخر- من أمجاد العروبة الحاضرة" (أحمد توفيق المدني، 1985، ص 46).

6. الإصلاح:

لقد اعتبر مفهوم "الإصلاح" في الفكر العربي الحديث والمعاصر مقوم أساسي من مقومات النهضة العربية والإسلامية، وذلك منذ أن أرسى قواعده في المشرق العربي يرى العلامة جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، ومن بعدهما رشيد رضا، ولقد تأثر العالم الإسلامي لهذه الحركة الإصلاحية في وقت مبكر لكن الجزائر بحكم ظروفها الجغرافية والتاريخية وخضوعها الاستعماري الفرنسي، "فإنها كانت آخر قطر عربي آثر وتاريخه بفكرة الإصلاح المعاصر" (محمد علي دبوز، 2013، صفحة 28).

ولقد تأثر علماء الجزائر بزيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر سنة 1903م بأفكاره الداعية إلى ثورة فكرية، وإلى زعزعة أركان الجهل والقضاء على مصادر الجمود حيث دعا في كتاباته المسلمين للرجوع إلى بساطة الإسلام الأولى، والتأمل من منبعي الدين اللذين مازالا على حيويتها وهما القرآن والسنة، وقد عمل محمد عبده على التوفيق بين الدين والعلم الحديث، فبيّن أن الحقائق التي جاء العلم الحديث لا تتناقض والقرآن، فتمكنت بذلك حركة الإصلاح الإسلامية من أخذ جميع مكاسب العلوم بدون تنازل عن تقاليدها الدينية، مصوبا ضد الغرب نفس الأسلحة التي تلقاها منه" (عبد الكريم بو الصفصاف، 2008، صفحة56).

وبعد عودة أبناء الجزائر من الحجاز ومن بينهم العلامة الإبراهيمي منبع الإسلام ومنبت الدعوة إلى الإصلاح بعد أن تشبعوا بالأفكار الناضجة الحديثة هناك واختمرت في أفكارهم وعقولهم وتأثروا بها تأثرا خاصا من كلام الله وسنة رسوله "بصورة مباشرة وعادوا إلى أرض الوطن يحملون معهم هذه الأفكار الجديدة، وفي الجزائر ظهر رجال بفكرة إصلاحية محدودة ولكنها على كل حال كانت محمودة قبل أن يظهر الإصلاح الموحد (التعاوني) وحاربوا البدع في دوائر ضيقة فكان لهم في القضاء على بعضها مساع موفقة" (البشير الإبراهيمي، 1935، صفحة 42)، وإذا كان العلامة البشير الإبراهيمي واحدا من هؤلاء الذين عادوا من الحجاز، فما هو مفهوم الإصلاح لديه وكيف يتم؟.

يمكن أن نستخلص مفهوم الإصلاح وأسسه عند العلامة البشير الإبراهيمي من خلال المقارنة التي يعقدها بين مفهوم الإصلاح في نظره ونظر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والإصلاح بمنظور الحركة الوهابية وهذا في موطن الرد على اتهام حركة الإصلاح لدى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بأنَّهم وهابيون فهو يقول: "وإن الوهابيين قوم مسلمون يشاركونكم في الانتساب إلى الإسلام، ويفوقونكم في إقامة شعائره وحدوده، ويفوقون جميع المسلمين في هذا العصر بواحدة وهي أنَّهم لا يقرون البدعة، وما ذنبهم إذا أنكروا ما أنكره كتاب الله وسنة رسوله، وتيسر لهم من وسائل الاستطاعة ما قدروا به على تغيير المنكر؟... تنسبوننا إليهم تحقيرا لنا ولهم، وازدراء بنا وبهم، وإن فرقت بيننا وبينهم الاعتبارات، فنحن مالكون برغم أنوفكم وهم حنبليون برغم أنوفكم، ونحن في الجزائر وهم في الجزيرة، ونحن نعمل في طريق الإصلاح الأقلام وهم يعملون فيها الأقدام، وهم يعملون في الأضرحة المعاول ونحن نعمل في مبانيها المقاول" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 124).

من خلال هذا النص تتضح بوضوح تام لا لبس فيه معالم الإصلاح عند العلامة الإبراهيمي، فإذا كان الإصلاح لدى جمعية العلماء المسلمين متأثرا بالحركة الوهابية كالدعوة إلى إنكار البدع ومحاربة المذكرات، فإنَّها لا تحذو حذوها تماماً، وإنَّما تحذو حذو الإصلاح الذي أرسى دعائمه العلامة محمد عبده القائم على الدعوة والتربية والتعليم ومحاربة البدع والخرافات والعودة إلى الإسلام بمفهومه الصحيح، وكان ينبغي في نظره "ربط التقدم العلمي بمبادئ الإسلام لأنَّه المبدأ الصالح للتغيير ومن هنا انطلق الشيخ محمد عبده ليبين أن الإسلام ينطوي على بذور عقلية وقوانين أخلاقية تجعله صالحا لأن يكون أساسا للحياة الحديثة" (محمد طهاري، 1992، صفحة 127).

إنَّ الإصلاح عند العلامة الإبراهيمي بصفة خاصة وجمعية العلماء بصفة عامة هو الاستلهام من مفهوم الإصلاح الذي دعا إليه محمد عبده القائم على التربية لا على السياسة، ولهذا عملت جمعية العلماء على إنشاء المدارس الحرة والعمل على بعث حركة تربوية تثقيفية كفيلة بإنقاذ المجتمع الجزائري من الجهل والأمية والتخلف، فالإمام الإبراهيمي "قد آثر المنهج الإصلاحي القائم على التربية والتعليم والتوجيه والتثقيف والمرحلية والتدرج للوصول إلى الهدف المنشود" (محمد دراجي، 2010، صفحة 51).

لقد آثار الإبراهيمي ومعه أعضاء الجمعية الإصلاح الديني على الإصلاح العلمي فقال رحمه الله: "إن الإصلاح العلمي هو ناحية من نواحي الإصلاح الكثيرة التي يجب أن تعطيها جمعية العلماء المسلمين فضل اهتمام واعتناء، ولو لم يحدث من الحوادث ما جعل اتجاه الجمعية إلى الإصلاح الديني أقوى لكان الإصلاح العلمي أول ما تعالجه وتبذل فيه جهودها لأنه ألصق باسمها وأكثر ارتباطا بحرفة رجالها ويكفينا دليلا على خطر الإصلاح العلمي وقيمته أن أكبر عناصر الإصلاح الديني الذي لا يمتري في لزومه عاقل يستمد قوته من شيء يسمى علما ومن أشياء تسمى علماء" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 144).

وهذه الحوادث التي ذكرها في النص والتي جعلت كفة الإصلاح الديني تتغلب على كفة الإصلاح العلمي هي، في نظر العلامة الإبراهيمي، شيوع الانحراف في مجال العقائد إلى درجة طلب النفع ودفع الضر من غير الله، والتوسل بالأموات وأصحاب الأضرحة والتمسح بالقبور ودعاء أصحابها وغيرها من المظاهر التي تتنافى وروح الإسلام الصحيح

التي روج لها الطرقيين، ولهذا بدأ الإصلاح الديني من محاربة الطرقيين والزوايا والتثنية إلى خطرهم على المجتمع واعتبارهم علة العلل في الإفساد ومنبع الشرور "فقد كانوا يعتبرون كل ما هو متفش في أوساط العامة في ابتداع في الدين وتحريف في العقيدة وإلحاد في الناشئة ناتج عن الطرق ومرده إليه، لذلك فإن الجمعية قد اعتبرت محاربة هذه الطرق المنحرفة من أولى واجباتها الإصلاحية" (عبد الكريم بو الصفصاف، 2008، صفحة 56).

وفي معرض تعريفه بحركة جمعية العلماء يؤكد على أن هذا الإصلاح الديني ركن أساسي من أركان الجمعية فقد قال رحمه الله: "الحركة التي قامت بها جمعية العلماء في الجزائر منذ ثلاثين سنة تقريبا وعرفت بالحركة الإصلاحية الدينية هي في حقيقتها دعوة القرآن والسنة الصحيحة فهما وعملا" (البشير الإبراهيمي، د.س، ص224).

وكان يهدف الإصلاح الديني والعلمي عند البشير الإبراهيمي ومن ورائه أعضاء الجمعية إلى التحرر الثقافي وبناء فكر عربي إسلامي وطني وخلق جيل جديد يؤمن بالمبادئ الوطنية والقومية، وهذا الجيل هو الذي ذكي الحرب التحريرية فيما بعد.

7. الإسلام والتقدم:

إن من أسس التقدم وإحداث نهضة في جميع المستويات في نظر جمعية العلماء المسلمين هي التمسك بمبادئ الإسلام كما وردت عن السلف الصالح، فمؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ عبد الحميد بن باديس كان يرى أن سبب الضعف والهوان والتخلف الذي يعيشه المسلمون لم يكن بسبب نظام الخلافة، بل إن أسباب الحياة والعمران والتقدم، في نظره، مبذولة للخلق على السواء، وإنَّ من يمسك بسبب بلغ –بإذن الله– إلى مسببه، سواء أكان برا أم فاجرا، مؤمنا أم كافرا، والمسلمون لما أخذوا بأسباب العمران أهملوا تلك الأسباب تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها، فخسروا دينا هم وخالفوا مرضاة ربهم وعوقبوا بما هم عليه من الذل والانحطاط" (عبد الحميد بن باديس، 1964، ص 78).

هذا عن موقف رئيس الجمعية أمَّا عن رئيسها بعد وفاة العلامة عبد الحميد بن باديس وهو العلامة البشير الإبراهيمي، فيسير في نفس الخط الفكري الذي رسمه له رفيق دربه فقد كتب عدت مقالات وأحاديث إذاعية يؤكد فيها أن أساس التقدم والنهضة وحتى الانبعاث الحضاري هو التمسك بالإسلام والقرآن الكريم ففي مقال بعنوان: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلاَّ بما صلح به أولها إلى القرآن من جديد" فالذي صلح به أول هذه الأمة حتى أصبح سلفا صالحا في نظر العلامة الإبراهيمي هو "هذا القرآن الذي وصفه منزله بأنه إمام وأنَّه موعظة وأنَّه نور وأنَّه بينات وأنَّه برهنا وأنَّه بيان"، وعند التساؤل لماذا القرآن فإننا نجد الشيخ الإبراهيمي يحدد لنا مزايا القرآن فهو:

- فيه نبأ من قبلنا وحكم ما بعدنا.
- هو الذي أصلح النفوس التي انحرفت عن صراط الفطرة وحرر العقول من ربقة التقاليد السخيفة وفتح أمامها ميادين التأمل والتعقل.
- القرآن هو الذي أصلح بالتوحيد ما أفسدته الوثنية.

- سوّى بين الناس في العدل والإحسان، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ولا لملك على سوقة إلا في المعروف ولا لطبقة من الناس فضل مقرر على طبقة أخرى.
- والقرآن هو الذي حل المشكلة الكبرى التي يتخبط فيها العالم اليوم ولا يجد لها حلا، وهي مشكلة الغنى والفقر، وحث على العمل كما يحث على الفضائل العلمية.
- والقرآن هو الذي بلغ بالسلف الصالح إلى تلك الدرجة العالية من التربية ووضع الموازين القسط للأقدار.
- القرآن وضع الحدود بين الحاكمين والمحكومين.

ويختم هذه المزايا بفقرة يؤكد فيها أنَّه لا مناص من القرآن للخروج من هذا التردي الحضاري فيقول رحمه الله: "هذا القرآن هو الذي صلح عليه أول هذه الأمة وهو الذي لا يصلح آخرها إلاَّ عليه، فإذا كانت الأمة شارة بسوء حالها، جادة في إصلاحه، فما عليها إلاَّ أن تعود إلى كتاب ربها فتحكمه في نفسها، وتحكم به وتسيير على ضوئه وتعمل بمبادئه وأحكامه، والله يؤيدها ويأخذ بناصرها وهو على كل شيء قدير" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 95).

وفي حديث له في إذاعة باكستان سنة 1952 يؤكد أنَّ المنقذ الوحيد لتخلف المسلمين، هو في الرجوع إلى هدي القرآن والسنة. فسبب انحطاط المسلمين بعد رفعتهم، في نظره، فيتمثل في أنهم "فرطوا في سنن الله في دينه، فغفلوا بسبب ذلك عن سنته في كونه وفي خلقه فانحدروا من تلك الدرجة التي رفعهم إليها الإسلام، إلى هذه الدركة التي هم فيها الآن وتماروا بالنذر فسلط الله عليهم من لا يخافه ولا يرحمهم (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة30).

أمَّا في مقال آخر بعنوان: "أصلح نظام لتسيير العالم الإنساني اليوم هو الإسلام" فيؤكد أنَّ الدواء الشافي لأمراض هذا العصر الحضارية المتمثلة في الحربين العالميتين أتت على الأخضر واليابس وفُشوا الإلحاد وشيوع الفلسفة المادية والاغترار بالعقل، وانقسامه إلى كتلتين عظيمتين متضادتين "تدور كل واحدة منها على مبدأ اتخذته دينا ودعت الناس إليه، فانضم كل ضعيف إلى واحد مُكرها كطائع، وكلا المبدأين لا رحمة فيه ولا خير، وكلاهما ينطوي على شرور وكلاهما يعتمد على الظفر والناب" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة69).

وبعد أن يعدد الحلول الإيجابية التي يقدمها الإسلام خاصة في العلاقة بين الرجل والمرأة وبين الآباء والأبناء وبين السادة والعبيد وبين الحاكمين والمحكومين وبين الأغنياء والفقراء وبين الجار وجاره وبين الإنسان والحيوان يصل إلى القول: "بأنَّ أصلح نظام لقيادة العالم الإنساني هو الإسلام، ولا نلتفت لسخر الساخر، ولا نأبه لدهشة المندهش، ونأتي بالحجة على لون آخر، وهو أن الإسلام عقائد وعبادات وأحكام وآداب" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 68)، وفي ختام هذا المقال يؤكد أنه إذا كان الإسلام لم يأخذ المكان اللائقة به في عالمنا فإن ذلك يعود إلى أن علماء الإسلام لم يحسنوا الدعاية إلى دينهم ولم يعرفوا كيف يغزون لحقائقه الأذهان. وفي مقال آخر يحمل المسؤولية، دائما لعلماء الأمة الذين لم يجعلوا الإسلام هو الحكم في معترك الخلاف وهو الجالب بقوانينه وأخلاقه لسعادة العالم حيث يقول –رحمه الله– "الذنب في ذلك كله في عنق علمائه: تعصبوا للمذاهب المفرقة فبعدوا عن المذهب الجامع وهو كتاب

الله وهدي محمد صلى الله عليه وسلم، وفهموا الدين قشورا وصدفوا عن اللباب، وتركوا قيادة الأمة فأضاعوا الأمانة"(آثار البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 78).

ويشير العلامة البشير الإبراهيمي في مقال له بعنوان "الإسلام والمسلمون شجون من الحديث عنهما وعن الإصلاح الديني" إلى موقف المستشرقين الحاقدين على المسلمين والذين يزدرون بدينهم، والذين يفسرون انحطاط المسلمين وتخلفهم بإرجاعه إلى الإسلام في حد ذاته، لأنه في رأيهم "يحمل في خفاياه جراثم التأخر والانحطاط والاستسلام للأوهام والخرافات ويخرج من ذلك إلى أن لا رجاء للمسلم في الرقي ومجاراة السابقين في الحياة إلا بالخروج من دينه" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحات 110-111).

وما هذه الاتهامات في نظر الشيخ الإبراهيمي إلا مجرد شعوذة وأباطيل لا أساس لها من الصحة، هدفها إخراج المسلم من حظيرة الإسلام، فكيف يمكن تفسير ظهور الحضارة العربية الإسلامية التي كانت تقود الحضارة العالمية في وقت من الأوقات إذا كان الإسلام هو سبب الانحطاط والتخلف كما يدعي فريق من المستشرقين. فالإسلام في عرف الشيخ الإبراهيمي إذا كان "سبباً في الصلاح لا يكون سبباً في الفساد، والإسلام الذي من مقاصده إسعاد البشر لا يكون أبناؤه أشقى الناس، والإسلام الذي حرّر العقل من قيوده ليفكّر ويدبّر، لا يكون سبباً في تقييده والحجر عليه، والإسلام الذي شرع المساواة في حقوق الحياة لا تنشأ عنه الأنانية والأثرة والتمايز" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 111).

8. تعليم المرأة:

لقد حثّت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على تعليم الصغار والكبار من البنين والبنات وجعلوهم مسؤولين أمام التاريخ وأمام الله يوم القيامة على إهمالهم تعليم الناشئة العلوم التي تنطبق مع مقوماتهم الشخصية، وذلك من أجل"الوقوف في وجه الحضارة الغربية التي أغرت الجزائريين بقشورها واحتفظت لأبناء الأوروبيين وحدهم بلبابها وثمارها البالغة" (عبد الكريم بو الصفصاف، 2008، صفحة 141).

ومن هذا المنطلق نجد لمبدأ تعليم المرأة في فكر جمعية العلماء عموماً وفي فكر العلامة الإبراهيمي خصوصاً مكانة هامة باعتبار أن تعليم المرأة له أثر في النهوض الحضاري وتكوين أجيال قادرة أولاً على مواجهة العدو الاستعماري، وثانياً على حمل لواء العلم والمعرفة في مرحلة ما بعد الاستعمار، ومن هنا هاجم العلامة الإبراهيمي بشدة أولئك الذين يدعون إلى حرمة تعليم المرأة وينتقد الأحاديث النبوية الشريفة التي يعتمدون عليها والأبيات الشعرية التي يستندون إليها في ذلك، ويبين أن هذه الأحاديث والأبيات الشعرية واهية ما دام منع تعليم المرأة لم يرد لا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الشريفة، وحول هذه الفكرة نجده يكتب ما يلي: "راجت بين المسلمين نزعة قديمة خاطئة وهي أن تعليم البنت مفسدة لها، ويلوك أصحاب هذه النزعة آثاراً مقطوعة الأسانيد، مُخالفة لمقاصد الشريعة العامة وتربية محمد صلى الله عليه وسلم العملية لنسائه ونساء المسلمين العالمات، ثم يؤيدون تلك الآثار الضعيفة الأسانيد بأقوال الذين يستمدّون شعورهم من شريعة العواطف المتباينة، لا من شريعة الله الجامعة، ومتى كان الشعراء مصدر فتوى في الدين" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 264) يرى الإمام الإبراهيمي أنَّ هذه الفتاوي قد ظلمت المرأة المسلمة

وهوت بها إلى أسفل الدركات وبانحطاط المرأة المسلمة تنحط الأمة و"أنَّ المرأة إذا تعطلت عطّلت الرجل وإذا تأخرت أخرته، ولا سبب لانحطاط المرأة عندنا إلا هذا الضلال الذي شوّه الدين وقضى على المرأة بالجمود فقضت على الرجل بالفشل" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 264).

والإمام الإبراهيمي انتصر لتعليم البنت، وهذا ما حملته جمعية العلماء على عاتقها منذ سنة 1931م.

لقد كان علماء الجمعية منصفين للمرأة "حيث كرموها بما عززها به الإسلام ونظروا إليها على أنَّها أغلى ما يملكه المجتمع، لأنَّها حاضنة آمال المستقبل فركزوا على تعليمها التعليم الديني لأنَّه الملاذ لها وللحياة كلها" (حجية الشيخ، 2010، صفحة 65).

9. الدعوة إلى الإنسانية:

إن لظهور النزعة الإنسانية في أوروبا الدور الكبير عصر النهضة والتنوير، ولقد كان هدف هذه النزعة هو تحقيق المثل الأعلى للكمال الإنساني في كافة المجالات: من أخلاقية، فنية، جمالية، اجتماعية وسياسية. إن الحركة الإنسيّة" حركة متفائلة بالإنسان وبقدراته على العطاء والإبداع والتوصل إلى أقصى حدود الكمال" (هاشم صالح، 2005، صفحة 75)، ولكن إذا كانت النزعة الإنسانية أو الإنسيّة، بالمنظور الأوروبي، هي تمجيد للإنسان، فإنَّ النزعة الإنسانية في فكر الإمام الإبراهيمي هي تمجيد للإنسانية.، ففي مقال له بعنوان "الإنسان أخو الإنسان" نجده يشرح معنى في هذه الأخوة وما تقتضيه من شروط.، فالأخوة في الإنسانية تقتضي في نظر الإمام الشروط التالية

1.9 المشاركة:

أيَّ أن يشارك الإنسان أخاه الإنسان في جميع لوازم الحياة "سروراً وحزناً، لذة وألماً مشاركة معقولة تنتهي إلى حدود لا تتعدّاها، بحيث يعلّم العالم الجاهل ويرشد النبيه الغافل، ويواسي الغني الفقير ويقع التعاون المتبادل بين الناس" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 59).

2.9 المساواة:

إنَّ المساواة خاصة في الحقوق ضرورية في نظر الإمام الإبراهيمي للوصول إلى هناء الإنسانية، فهو يقول: "ومن مقتضى هذه الأخوة المساواة في الحقوق البشرية العامة، تلك المسألة التي طالما بذل فلاسفة الأمم قواهم لتقريرها وتمكين دعائمها في الكون، وعملت الشرائع على تنميتها وتغذيتها بالمبادئ الصحيحة حرصاً على راحة البشر وهناء الإنسانية" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 61).

3.9 إلغاء التمايز:

من مقتضى هذه الأخوة في نظر الإمام الإبراهيمي، هي إلغاء "سنة التمايز والاستئثار التي سنّها المستبدّون في القرون الخالية وكانت سلاحاً مهولاً في وجه الحق" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 61)، فالحق الذي يقصده الإمام هو حق الأخوة الإنسانية المتآلفة المتآزرة.

عندما حلل الشيخ الإبراهيمي سبب تفكك الإنسانية واختلافها باختلاف الأطوار والأجيال، فإنَّه قد أرجع هذا التفكك إلى عدة أسباب أهمها: الاستبداد والإباحية وتحكيم الهوى على العقل. لكن في نهاية هذا المقال تنبأ الإمام الإبراهيمي بضرورة التآخي بين الأمم والشعوب، بدليل وجود عدة مؤشرات توحي بذلك، منها تأسيس عدة جمعيات لمساعدة المنكوبين في هذه الحياة بلا تمييز بين الجنسيات والأديان، فهناك جمعيات علمية، طبية، مالية، صناعية ورياضية، وحتى هذه الجمعيات في نظره من أكبر العوامل في تآخي البشر وتقرّب الشعوب من بعضها البعض ومن أقوى"الأسباب في غلبة الاتصال على الانفصال والتعارف على التناكر والوفاق على الخلاف والاجتماع على الافتراق" (البشير الإبراهيمي، د ت، صفحة 61)، وكأني بالإمام الإبراهيمي قد تنبأ بقيام عولمة حقيقة وفق القيم الإسلامية النبيلة وليس وفق العولمة الغربية الراهنة التي شتت البشرية عوض جمعها، وأدخلتها في أتون حروب ضارية متتالية لا نعرف متى تتوقف.

10. خاتمة:

هذه الأفكار حول أسس التنوير والتقدم عند العلامة البشير الإبراهيمي هي غيض من فيض أفكاره النيرة وهو بحق منور الأذهان كما لقبه المرحوم أبو القاسم سعد الله ويقول عنه الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي بأن "البشير الإبراهيمي كان –مع ابن باديس– كالسلعة التي ثبت في الجزائر ثورتها الثقافية التي مكنت الشعب الجزائري من نيل استقلاله"(عبد الرزاق قسوم، 2010، صفحة 16)، وبفضل التنوير الذي كان الغاية الأولى لكتابات الشيخ الإبراهيمي حافظت الأمة الجزائرية على شخصيته وهويتها التي تجسدت في شعار "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا".

قائمة المراجع:

1. الإبراهيمي، البشير. (1935). *سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين*. المطبعة الجزائرية الإسلامية.
2. الإبراهيمي، البشير. (2007). *في قلب المعركة*. في قلب المعركة، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.
3. الإبراهيمي، البشير. (2009). *آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي*. دار البصائر.
4. الإبراهيمي، البشير. (د ت). *أثار البشير الإبراهيمي*. ج3. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
5. بن باديس، عبد الحميد. (1964). *تفسير ابن باديس أو مجالس الذكر من كلام الحكيم الخبير* . دار الكتاب الجزائري.
6. بو الصفصاف، عبد الكريم. (2008). *جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطوير الحركة الوطنية الجزائرية 1931- 1945* . عالم المعرفة النشر والتوزيع.
7. جدعان، فهمي. (1979). *أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث* . المؤسسة العربية للأبحاث والنشر.

8. جلال الدين، أحمد أمين. (2004). *حول مفهوم التنوير: نظرة نقدية لتيار أساسي من تيارات الثقافة العربية المعاصرة، قضايا التنوير والنهضة في الفكر العربي المعاصر*. مركز دراسات الوحدة العربية. 69-90. https://search.emarefa.net/ar/detail/BIM-695904

9. الحفني، عبد المنعم. (2000). *المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة*. ط3. مكتبة مدبولي.

10. دبوز، محمد علي. (2013). *نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة*. ط2. المطبعة العربية.

11. دراجي، محمد. (2010). *الإصلاح العلمي ومكانته في التجديد الإسلامي عند الإمام الإبراهيمي* . مجلة الوعي. العدد2.

12. شيدخ، حجيبة. (2010). *المرأة في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي*. مجلة الوعي. العدد2.

13. صالح، هاشم. (2005). *مدخل إلى التنوير الأوروبي*. ط1. دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع.

14. الصديق، محمد الصالح. (2010). *شخصيات فكرية وأدبية*. دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.

15. طهاري، محمد. (1992). *مفهوم بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده*. ط2. المؤسسة الوطنية للكتاب.

16. عمور، مولود. (2010). *تجربة الإمام الإبراهيمي في جريدة البصائر*. مجلة الوعي. العدد2.

17. قايد، بشير. (2010). *الإمام محمد البشير الإبراهيمي داعية الوحدة العربية* . ط 1. مركز دراسات الوحدة العربية.

18. قسوم، عبد الرزاق. (2010). *الإمام الإبراهيمي في ضمائر العلماء والمفكرين* . مجلة الوعي. https://binbadis.net/archives/2077

19. المدني، أحمد توفيق. (1985). *الإبراهيمي كان أمة، كان جيلا، كان عصرا* . مجلة الثقافة. العدد 85. 37-49.

20. ولد أباه، عبد الله السيد. (2004). *أزمة التنوير في المشروع الثقافي العربي المعاصر إشكالية نقد العقل أنموذجاً*). مركز دراسات الوحدة العربية. 91-111. -https://search.emarefa.net/ar/detail/BIM-695905